شجرة الجميز

قديمة هي قدم القرية .. شامخة شموخ الجبال .. باسقة تشق أفنانها عباب الفضاء .. تحنو على ما حولها من أشجار أو شجيرات كما تحنو الأم على صغارها فتضمهم تحت جناحيها في عطف وحنان ووقار.

تجود على أصحابها من البشر بثمارها الحلوة الطازجة في العام مرتين، وربما ثلاث مرات.. كثيراً ما نسجت حولها الأساطير والحكايات العجيبة التي لا يفتأ الآباء والأمهات يرددونها على مسامع الأبناء حين يلتفون حول نار المدفئة في ليالي الشتاء ..!!

كان من الأشياء التي باتت تعلق بالأذهان ، وتلوكها بين الحين والحين ألسنة أهل القرية أن من غرس شجرة جميز لا يمكنه أن يأكل من ثمارها ..! ومن سقط من فوقها يدركه الموت في الحال حتى وإن كانت سقطته هينة .

هذه الشجرة الكبيرة تقع على الحد الفاصل بين حقلين، أحد الحقلين لفلاح بسيط يدعى "شحاته الغنام"، وهو رجل أربعيني أسمر اللون، نحيف الجسم، يميل بطبعه إلى العزلة والانطواء؛ لأنه يخشى الحسد ، ويغار على بيته غيرة عمياء .

والحقل الآخر لفلاح فقير يدعى "عوض المغربي" .. وهو رجل يصغر "شحاته" بعامين لكنه رغم فقره يبدو وسيماً وأنيقاً ، ولديه القدرة على جذب الانتباه بحسن كلامه ولباقة حديثه .. نشأت بين الأسرتين علاقات محبة، ووشائج قربى، وأواصر جوار غير عادي، فغدت الأسرتان كالأسرة الواحدة ، ولم لا ؟! ألم يشتركا معاً

في ثمار هذه الشجرة التي حنت عليهما، وألّفت بين قلبيهما، وكانت السبيل لتوحيد جهودهما ؟!

كانت هناك بعض الطقوس لابد من أدائها قبل الحصاد .. يخرج "شحاته" ، و"عوض" في ظلام الليل، معهما مصباح صغير يعمل بالكيروسين .. يصعدان شجرة الجميز، ويضعان المصباح على أحد الأغصان، ثم يخرج كل واحد منهما سكيناً من جيبه ، ويشرعان في تفتيح الثمار ثمرة ثمرة ؛ ليزداد حجمها ، ويحلو طعمها ..!

وبعد أيام يصعد الرجلان إلى الشجرة لجني الثمار .. هنالك تتقاسم الأسرتان ما تجود به الشجرة من ثمار ، فتأخذ كل أسرة نصيبها الذي قدّره الله لها ، ثم تحمله إلى المدينة المجاورة كي يتم بيع هاته الثمار.

ذات ظهيرة عاد "شحاتة" من الحقل ليجد جاره في الحقل وشريكه في شجرة الجميز خارجاً من داره ، ولم يكن في البيت أحد سوى زوجته ، لعبت برأسه الوساوس، وذهبت به الظنون كل مذهب، وراح يحدث نفسه :

ـ لماذا أتى عوض إلى داري في هذا الوقت رغم أنه يعلم بأني في هذا الوقت أكون في الحقل ؟ وهل هذه أول مرة يأتي فيها إلى داري؟ أم أنه اعتاد المجيء في مثل هذا الوقت ؟ لابد أن أتبين الأمر .

دخل على زوجته ..أغلق باب الحجرة ، ثم نظر إليها نظرة حادة، وسألها :

ـ ما الذي كان يفعله عوض في هذا البيت ؟!

أجابت بتلعثم :

ـ جاء ليسأل عنك .

نظر إليها والشرر يتطاير من عينيه، وقال:

ـ هو يعلم أني في الحقل .. لماذا جاء إلى هنا؟! هل بينك وبينه شيء؟

نظرت إليه في غضب وقالت:

ـ ماذا تقول يا شحاته؟ هل جننت؟ أنت تعرفني وتعرفه.. لماذا كل هذه الوساوس؟!

كظم غيظه، وحاول أن يتناسى ما حدث، فقد تكشف له الأيام ما كان مخبوءًا.

مر أسبوع ووجدت جثة "عوض" ملقاة على الأرض إلى جوار شجرة الجميز، خرجت القرية تتأمل الحادث الأليم فأيقنوا جميعاً بأنه سقط من فوق شجرة الجميز؛ لأنه وقت التختين.

لم يساور الشك أحداً في احتمال وجود جريمة وراء مقتل هذا الرجل.

مرّ على الحادثة عشرون عاماً، ونسيت القرية ما حدث لكن شخصاً وحيداً كان يشعر بالرعب والفزع كلما مر على شجرة الجميز، وينظر إليها بهلع كأنها تتوعده، ومنذ مقتل شريكه لم يستطع صعود هذه الشجرة فكان أولاده ينوبون عنه في هذا الأمر.

بدأت تستولي على شحاته في الأيام الأخيرة فكرة الانتحار فحاول خنق نفسه لكن أبناءه أدركوه، وأصبحوا يتناوبون في رعايته وأخذ الحيطة، لكنه غافلهم ذات ليلة، وأحضر حبلاً قوياً ووضعه في جيبه.. أخذه أحد أبنائه معه إلى المسجد لصلاة الفجر، لكنه تركهم أثناء الصلاة واتجه إلى شجرة الجميز، صعد الشجرة في هدوء، ربط طرف الحبل في فرع من فروعها، والطرف الآخر لفه بإحكام حول عنقه، ثم ترك نفسه للهواء، ظل في الهواء يتأرجح، بدأ ضوء النهار يتسلل في هدوء .. رآه أحد الفلاحين معلقاً في الهواء صرخ بأعلى صوته خرجت القرية على هذا الضجيج فهالهم ما رأوه.. بكى الرجال وصرخت النساء لهول المشهد الذي رأوه ؛ ما كان أحد يتوقع لهذا

الرجل تلك النهاية المأساوية ؛ فقد كان هادئاً رزيناً، لا يتعامل مع الناس إلا بحذر، ترى ما السر الذي وراء انتحاره؟ لا أحد يعلم ..!!

وتمضي الأيام ويتغير الناس لكن شجرة الجميز مازالت واقفة صامدة تعطي ثمارها في موعدها، وتكتم سرها وسر الآخرين في جوفها في حكمة ووقار ليس لهما نظير.

****